الفصل الأول

فى التصوف والطرق الصوفية بين خصومها وأنصارها[1]

قال تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرًا، ثم يكون حطامًا، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[2].

وقال أيضا فى كتابه العظيم: ﴿يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾[3].

وقال: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾[4].

وقال: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[5].

وقال فى حديثه القدسى: «من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

---

(١) تعود بعض الباحثين إن لم يكن معظمهم، أن يبدءوا كتاباتهم فى التصوف بذكر أصل كلمة تصوف ومعناها من خلال «الرسالة القشيرية» و«اللمع» و«قوت القلوب» و«كشف المحجوب». ثم يناقشوا مصادر التصوف الإسلامى، فيستعرضوا آراء المستشرقين وغيرهم حول مصادر هندية وفارسية وهلينية ومسيحية ويهودية...

ونحن نرى أن هذه المحاولات لرد التصوف الإسلامى إلى أصول غريبة عنه محاولات تبعد عن الموضوعية، كما سنبين ذلك فى حينه، وسيكون من قبيل التكرار الذى أصبح ظاهرة دائرية أن نتكلم عن أصل كلمة صوفى عند القشيرى والطوسى وأبى طالب المكى والهجويرى... أو أن نستعرض آراء المستشرقين وتلاميذهم - وتظهر فى معظمها العصبية - حول مصادر التصوف الإسلامى الذى نرى أن مصادره إسلامية.

(٢) الآية ٢٠ من سورة الحديد.

(٣) الآية ٥ من سورة فاطر.

(٤) الآية ٢٨ من سورة الكهف.

(٥) الآية ٦٢ من سورة يونس.

وروت عائشة فيما رواه البخارى ومسلم: «أن النبى ﷺ كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا».

إننى لا أنصب نفسى مدافعا عن التصوف الإسلامى والصوفية.. فلست صوفيًا لأن قدرى ضئيل جدًا بالنسبة لهم.. ولست مريدا أو شيخا حتى أجاملهم على حساب الموضوعية، وإنما أنا باحث عن الحقيقة فى هذا الموضوع.

وأود أن أقول: إن هؤلاء الأساتذة الأفاضل لم يتأنوا فبحثوا عن مصادر أجنبية، وردوا إليها التصوف الإسلامى، ولو أنهم بحثوا بتأن أكثر بعيدا عن نزعات وأهواء واتجاهات عصبية لتلمسوا أصول التصوف الأولى فى القرآن نفسه، وسنة نبى الله ﷺ، وكان واجبهم ألا ينسوا أبدا أن النبى ﷺ يعد الرائد الأول للتصوف الإسلامى بحق، وأننا نلمس تصوفه فى تحنثه فى غار حراء: «أليست حياة محمد هنا بما فيها من تحنث وخلوة واكتفاء بالقليل من الزاد صورة أولى للحياة التى كان يحياها الزهاد والعباد والصوفية بعد ذلك، ويخضعون فيها أنفسهم لرياضات، ومجاهدات يختلف فيها على أنفسهم أذواق ومواجيد، وكلها عندهم سبيل إلى كشف الحقيقة؟.. أليس هذا التأمل الذى كان يمعن فيه محمد ﷺ، ويغيب فيه عن كل شىء حتى عن نفسه أساسا لهذه الأذواق والمواجيد الصوفية، ولما يعرض فيها لسالك طريق الله من غيبة وسكر ومحو وفناء»(٦).

وقد ذكر صاحب الحياة الروحية فى الإسلام فى كتابه حديثًا لم أجد له أصلا فى كتب السنة الصحيحة(٧).

إن مصدر التصوف الإسلامى القرآن الكريم، وسنة الرسول الكريم «فكل آية تذكر الفكر أو الذكر، أو الاستقامة أو الذاكرين أو المستغفرين أو العابدين، أو الموقنين أو المتبتلين، أو عباد الله المخلصين، أو أولى الألباب، وكل آية تصف الخوف أو الرجاء أو البشرى أو الاستقامة أو الإيمان، أو المعرفة أوالصبر، أو الرضا أو التوكل، أو الحب أو التوحيد الحق. آية*.. وأقواله ﷺ، تشريع وتعليم، وثمرة أعماله إيمان ويقين، وذلك طريقه العملى، وهو أصل طريق القوم. أما أحواله ﷺ، فمعرفة وتحقيق على قاعدة أن الأقوال وهى العلم تنتج الأعمال وهى الطاعات والعبادات، والعبودية لله فى العبادات والمعاملات تثمر الأحوال الشريفة فيما بينه وبين الله من أسرار، كاتصافه بأخلاق الحق

---

(٦) الحياة الروحية فى الإسلام للأستاذ الدكتور مصطفى حلمى ص ١٥.

(٧) روى عن النبى ﷺ: «أنه عرضت له حالة من تلك الحالات النفسية التى تشبه الوجد، وما يحصل فى الوجد من غيبة الإنسان عن نفسه وعما يحيط به... وحدث أن دخلت عائشة زوج النبى وهو فى تلك الحالة، فلما رآها سألها من أنت؟ فأجابته قائلة: أنا عائشة.. فسألها النبى ثانية: من عائشة؟ فأجابته بقولها: ابنة الصديق.. ولكن النبى ﷺ عاد فتساءل مرة أخرى: ومن الصديق؟ فكان الجواب: هو محمد ﷺ.. ولكن عندما سألها النبى بقوله: من محمد؟ لزمت الصمت. لأنها علمت عندئذ أن النبى لم يكن فى حالة عادية».

* أختلف مع الأستاذ أبو الفيض فى هذا الرأى. والأقرب هو القول بأن هذه الألفاظ فى إطار التصوف ذات نكهة ودلالة خاصة.

وشهوده، وذلك ما يفسره حديث جبريل عليه السلام وسؤاله: ما الإيمان وما الإحسان، أو قل الشريعة والحقيقة»[٨].

ومرة أخرى أسأل مخلصًا هؤلاء الأساتذة الأفاضل الذين حاولوا أن يردوا التصوف الإسلامى إلى مصادر أجنبية مختلفة... لماذا لم يحاولوا من ناحية أخرى أن ينظروا إلى الجانب المقابل، فيبحثوا مثلا عن مدى أثر التصوف الإسلامى فى بيئات ومجتمعات مختلفة.

والحق أن حركة التأثير والتأثر شاعت فى القرن التاسع عشر الميلادى، حيث حاول بعض المفكرين والمستشرقين أن يردّوا كل ما هو إسلامى أو عربى إلى أصول غريبة عنه.

ومن الغريب أن بعض المفكرين المسلمين سار منحى أساتذته من مستشرقين وغيرهم من أصحاب مدرسة التأثير والتأثر.

لكننا نؤكد أن جذور التصوف الإسلامى كما قلنا موجودة فى الإسلام نفسه، ومن هنا فنحن نرى أن حركة تغريب التصوف الإسلامى برده إلى مصادر غريبة عنه، حركة تبعد الفكر الإسلامى عن مصادره الأصيلة.

الهجوم على التصوف والطرق الصوفية:

وإذا ما انتقلنا إلى فكرة أخرى وهى مسألة الهجوم على التصوف والطرق الصوفية نستطيع أن نقول:

إن الذين هاجموا التصوف والطرق الصوفية نظروا إلى القشور، وتركوا اللب.. نظروا إلى ما يفعله بعض الجهلة من المريدين والمتكسبين من الانتساب للطرق من أمور لا يرضى عنها الإسلام.

ولا يضر التصوف والطرق الصوفية ظهور هذه الفئة من المتواكلين والدجالين والمشعوذين والبلهاء، الذين يتكسبون من وراء لبس الخرق والهلاهيل، والانتساب للطريق، فليس ذكر الله بهذه الصورة البشعة التى يذكر بها الدراويش والمجذوبون من الطريق فى شىء.

وليس من التصوف ولا من الطريق إقامة هذه الأضرحة العظيمة لشيوخ الطرق، وتقديس مريديهم لها، وتوسلهم بهذه الأجساد الطاهرة الراقدة تحت الثرى..

أما الطريق ففكرته طيبة وضيئة.. الطريق عهد بين المريد والشيخ على أن يتوب عن المعاصى أبدًا، وألا يرتكب صغيرة أو كبيرة، وأن يكون طاهر الجسد والروح معًا، وأن يقيم شعائر الله وسنن رسوله، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يذكر الله كثيرًا ويتوب إليه. وماذا.. بعد هذا؟... ماذا بعد أن ترى إنسانًا تائبًا طهورًا يقيم شعائر الإسلام ولا يكذب أبدًا.

ماذا لو رأيت إنسانًا يطبق ما يدعو إليه شيخه وهو التوبة، والعمل بالكتاب وبالسنة «إنك إذا

---

(٨) كتاب بداية الطريق إلى مناهج التحقيق للسيد محمود أبو الفيض المنوفى.

وجدته: تراه من أكرم الناس فى الأخلاق وفى العشرة، وترى الأدب منه يفيض على لسانه وجوارحه وحركاته وسكناته، فيصونه أدبه عن مظان السوء، وسواقط الأخلاق، وتافه الأعمال.. إنك إذا وجدته ترى الظاهر منه كالباطن، فنفسه فى صفاء، وقلبه فى نقاء، وقلبه صادق، وأعماله خالصة من إرادات النفس، ومن شوائب الحظوظ يخفض الجناح، ويسهل الصعب، ويهون الشديد»[٩].

وإذا كان بعض ما تراه اليوم من بعض المنتسبين للطريق ظلمًا وبهتانًا يحسب على الطريق، فالحق أننا لا نكون منصفين إذا حسبنا مثل هؤلاء البلهاء ذوى الأثمال البالية من الطريق أو على الطرق، ذلك أن الصوفى الحق، والمريد الصادق، إذا رأيته «تراه فى صبر وعلى يقين، فلا يستفزه المبطلون، ولا يستخفه الذين لا يوقنون. فهو مع الله بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ولا ينتظر من الخَلْق حمدًا باللسان، ولا منزلة فى القلب، ولا يبغى من أحد جزاء ولا شكورًا، ولا منزلة ولا جاهًا، فكل الخلق فى نظره هم وأصحاب القبور سواء، لا يملكون ولا يقدرون»[١٠].

وحقيقة «أننا إذا عاشرنا المتصوفة فى جميع بقاعهم وعصورهم ودياناتهم، وجدنا وحدة الطابع لموقفهم من الحياة والإنسان - هذا على خلاف فى التفصيلات التى اصطبغت باللون المحلى للعقيدة أو المذهب أو الحضارة، ولوجدنا أنهم دعاة أمن وسلام ومحبة، لا يعميهم التعصب، ولا يحجرهم الجمود، ولا يتأبى عليهم تذوق الجمال، ولا تنقصهم الشجاعة وإنكار الذات، ولا تقصر ملكات التفكير فيهم، ولا يفزعهم ما يفزع أغلب الناس. وما أربح الأمة إذا استطاعت أن تستمد من هذه الينابيع طاقاتها الروحية التى هى نماذج حية، وترجمة واقعية للب الدين وجوهره»[١١].

حقيقة أن بعض الصوفية أنفسهم أساءوا للطريق إساءة بالغة مثل كتب الطبقات المليئة بالمغالطات والأساطير العجيبة، حول قدرة العارفين وكراماتهم[١٢]، لكن ذلك لا يجعلنا نسىء إلى كل المتصوفة، ونشوه صورتهم الوضيئة.

وكتَّاب المناقب أشاعوا فى كل مكان أن المتصرفين فى الكون أربعة أقطاب . فها هو ذا مثلا صاحب كتاب قلائد الجواهر يقول: «انعقد الإجماع من جماهير الأشياخ من الفقهاء والفقراء، وتضمنت الكتب المدونة أن أصحاب التصريف التام من السادة القادة الأولياء، فى حياتهم وفى قبورهم بعد وفاتهم، كتصرف الأحياء إلى يوم القيامة، بتخصيص من الله تعالى لهم، وهم: الشيخ عبد القادر الجيلى، والشيخ معروف الكرخى، والشيخ عقيل المنجى، والشيخ حياة بن قيس الحرانى. وأن السادة البررة أربعة أيضًا، الذين يبرئون الأكمه والأبرص ويحيون الموتى بإذن الله تعالى، وهم: الشيخ الجيلانى، والشيخ أحمد. والثوانى أربعة: مسلم بن نعمة السروجى، والشيخ حماد بن مسلم الدباس، والشيخ أبو الوفا

---

(٩) كتاب أدب العبودية للأستاذ محمد مصطفى عبد الرحمن ص ٣٨.

(١٠) نفس المرجع ص ٣٨.

(١١) التصوف طريقًا ومذهبًا للأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر ص ١٦.

(١٢) لست من الغلاة الذين ينكرون الكرامات.. وسأبين رأيى فى الكرامة فى موضعه المناسب من هذا الكتاب.

محمد كاكيس، والشيخ عدى بن مسافر(١٣).

وأظن أن مثل هذه الكتابات التى سيطرت على عقول العامة من مريدى الطرق الصوفية، كان لها أبلغ الأثر فى أخذ أفكار مشوهة عن الطريق وأصحاب الطرق الصوفية.

ومن الغريب أن كل كتب المناقب تسير على هذا النهج.

وحين تتحدث عن قطب من أقطاب الطريق تصوره بصورة بعيدة كل البُعد عن التفكير الإسلامى الصحيح.

والطوسى فى تحليل دقيق يذكر السبب فى خطأ بعض الصوفية، فيقول: إنه نظر إلى الفرق التى غلطت فوجدهم ثلاث طبقات:

١ - طبقة أخطأت فى الأصول، لعدم دراستهم أحكام الشريعة وأصولها الغراء.

٢ - أما الطبقة الثانية فإنهم أخطئوا فى فروع التصوف، وهى الآداب والأخلاق، والمقامات والأحوال، والأفعال والأقوال، والسبب فى ذلك راجع إلى متابعتهم لحظوظ النفوس، ومزاج الطبع، لأنهم لم يدنوا ممن يروضهم ويجرعهم المرارات، ويؤمنهم على المنهج الذى يؤديهم إلى مطلوبهم.

٣ - أما الطبقة الثالثة، فكان غلطهم فيما غلطوا فيه زلة وهفوة، لا علة وجفوة، فإذا تبين ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق، ومعالى الأمور، فسدُّوا الخلل، وأذعنوا للحق، وأقروا بالعجز، فعادوا إلى الأحوال الرضية(١٤).

ابن تيمية ومهاجمته للتصوف:

من بين المفكرين المسلمين العظام، الذين عرفوا بمهاجمة التصوف والصوفية، الإمام أحمد بن تيمية رضى الله عنه.

وقد أختلف مع الإمام ابن تيمية فى بعض النقاط، ومع ذلك فنحن نقدر فيه جهوده الفكرية الأصيلة وجهاده الإسلامى الرائع.

وقد هاجم الإمام العظيم ابن تيمية الصوفية فى قولهم: إن طاعتهم لله، وعبادتهم وحبهم الشديد له، طريق للعلم والكشف والمعرفة والإلهام.

ويبدو أن شدة غضب الأستاذ ابن تيمية على الصوفية، جعلته ينسى قول الله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علمًا﴾* وقوله: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا﴾** وقوله: ﴿قال الذى عنده علم من

---

(١٣) قلائد الجواهر للشيخ محمد التادفى ص ٤٧.

(١٤) اللمع للطوسى ص ٥١٨ بتصرف.

* سورة الكهف الآية ٦٥.

** سورة الأنفال الآية ٢٩.

الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾* وقول الرسول ﷺ: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لا يعلم».

ثم لا ننسى أن هذا العلم اللدنى والإلهام، مشروط بشرائط من الكتاب والسنة، حتى أن الإمام الشاذلى قال: «إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسّك بالكتاب والسنة، ودع الكشف وقل لنفسك، إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة، ولم يضمنها فى جانب الكشف والإلهام»(١٥). وهاجم الإمام الجليل ابن تيمية الصوفية فى حبهم أولياء الله وتقديرهم لهم، واحتفالهم بموالدهم، ولا غبار فى حب المسلمين لأتقياء الله وأوليائه، لكننا نرى أن بعض الأتباع قد غالوا فى حبهم لشيوخهم بطريقة تبعدهم عن تعاليم الدين الحنيف، فمنهم من يقبل الأضرحة والعتبات، ومنهم من يتمسح بالأحجار، ويعتقد أن وليه قادر على تحقيق مطالبه ورغباته. ثم لا ننسى ما يحدث فى الموالد.

وهاجم ابن تيمية المتصوفة فى حرصهم على أورادهم وأذكارهم.

وذكر الله مطلوب فى كل وقت، فقد قال تعالى: ﴿فاذكرونى أذكركم﴾** وقال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ وقال: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارًا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويُمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾***.

لكن الحق يقال إن ذكر الله بهذه الصورة التى نراها فى الموالد، وفى بعض حضرات أهل الطريق تسىء كثيرًا للطرق وتشوه جمال الطريق(١٦).

وهاجمهم فى زهدهم، وقال: إنه يدعو إلى الضعف فى الحياة، مع أن الزهد ارتفاع عن ماديات الحياة والجسد، وسمو بالإنسان وقيمه.

ونلاحظ أنه «لم تقتصر إدانة التصوف على أصحاب النزعة السلفية، وإنما شملت مجددين يمكن اعتبار أكثرهم منتسبين إلى مذاهب كانت ولا زالت لا تتهم التصوف، إن لم تكن متعاطفة معه، كالمذهب الأشعرى، مذهب الخلف من أهل السنة، الذى يدين به جمهور كبير من المسلمين، من هؤلاء المجددين جمال الدين الأفغانى (ت ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م) فقد اعتبر التصوف مسئولاً عن شيوع روح التواكل بين المسلمين، واعتقادهم الجبر باسم القضاء والقدر(١٧)، وأنهم يتخذون الإيمان بالقضاء والقدر سبيلاً إلى القعود عن طلب الرزق، إن الإيمان بالقدرة الإلهية ليس حائلاً دون حرية إرادة الإنسان، إن الإيمان بالقضاء هو الذى مكن المسلمين الأوائل من الفتوحات.. إن هؤلاء الذين

---

* سورة النمل الآية ٤٠.

(١٥) طبقات الشاذلية الكبرى ص ٢٠.

** سورة البقرة الآية ١٥٢.

*** سورة نوح الآيات ١٠ - ١٢.

(١٦) سنتناول الذكر فى موضعه المناسب من هذا الكتاب.

(١٧) بحث الدكتور أحمد صبحى بعنوان التصوف: إيجابياته وسلبياته بمجلة عالم الفكر الكويتية ص ٣٣٥، ٣٣٦ عدد يوليو - أغسطس سبتمبر ١٩٧٥.

لا يفهمون من التوكل إلا معنى التواكل يجب إزالتهم، وتنقية الهيئة الاجتماعية من دونهم، لأن آراءهم ليست على وفاق مع الدين[١٨].

. وهذا خطأ فى فهم الطريق، فالطريق لا يدعو إلى التواكل وإنما إلى التوكل على الخالق الرازق، فالسير فى الطريق لا ينافى الكسب «اعلم أنه لا يتعين على الإنسان إذا أراد الدخول فى طريق الله أن يخرج من ماله إن كان له مال، أو يترك حرفته وتجارته إن كان محترفًا أو متجرًا، بل الذى ينبغى عليه تقوى الله فيما هو فيه، والإجمال فى الطلب، بحيث لا يترك فريضة ولا نافلة، ولا يقع فى محرم ولا فضول لا تصلح الاستعانة به فى طريق الله»[١٩].

إن الذى شوه طريق القوم، هؤلاء الدخلاء من ذوى الأثمال الهرئة، الذين وجدوا أنفسهم يعيشون من خلال انتمائهم الكاذب للطريق، والطريق منهم براء. فأصحاب الطريق، أعز الخلائق نفسًا، وأنورهم قلوبًا، وأغناهم به غنى، وأطيبهم عيشًا، حزنهم فيما يسر به الناس، وسرورهم فيما يحزن له الناس، وطلبهم لما يهرب منه الناس، وهربهم مما يرغب فيه غيرهم من أهل الغفلة والغيرة، يستأنسون إذا استوحش الناس، إذ كان أنسهم بالله جل وعز وحده استكمالاً لمناجاته، فعنده يضعون بثوثهم، وإليه يضرعون فى حوائجهم، قد اتخذوه حرزًا وجنة وكهفًا[٢٠].

ويقول الدكتور جعفر[٢١]: وإذا كان هناك من يظن أن التصوف يحتوى على أحلام لا غناء فيها ولا نفع، أو أنه عبارة عن تمتع عاطل وأنانى بتجارب غريبة، دون أن يكون له أى أثر قيم فى الحياة - إذا كان هناك من يظن ذلك - فإن هناك باحثين جادين، سجلوا تقديرهم العميق للجهد الروحى الذى بذله هؤلاء فى تصحيح سلوكهم، وتغيير أنفسهم، يقول بعضهم عن التصوف[٢٢]: إنه الشهادة العامة، والبرهان الكلى والجمعى لهؤلاء الذين يعرفون حقًا أن تجربة الصوفية تحول الحياة الإنسانية، وتغير الشخصية غالبًا مما هو دنىء وأنانى، إلى ما هو نبيل ونزيه.

وهذا ولا شك يبرز الجانب الأخلاقى فى التصوف بصورة عامة.

ومن جانب آخر نجد أن الصوفى الحق يطغى عليه الجانب الروحى، فيستطيع أن يترك ماديات الكون، بل وأن «يخترق حدودها».

وقد اتهم الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن الوكيل الصوفية، بعدم جهادهم الحاكم أو أعداء البلاد،

---

(١٨) نقلاً من الأستاذ الدكتور صبحى عن الأعمال الكاملة للأفغانى ص ٢٩٧ جمع محمد عمارة نقلاً من كتاب خاطرات جمال الدين الأفغانى طبعة دار الكاتب العربى.

(١٩) رسالة آداب سلوك المريد للحداد ص ٢٢.

(٢٠) الرعاية لحقوق الله للمحاسبى ص ٢٨ تحقيق الأمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ طه عبد الباقى سرور.

(٢١) التصوف طريقًا ومذهبًا للدكتور محمد كمال جعفر ص ١٩. tace Walter trence.

(٢٢) يقصد الدكتور جعفر: Ha ppold: Mysticism p. 35.

فيقول فى كتابه: هذه هى الصوفية «أروني صوفيًا واحدًا جاهد الاستعمار أو كافحه، أو دعا إلى ذلك»(٢٣).

وفى هامش نفس الصفحة يقول، نقلاً عن عمر فروخ فى كتابه: الإسلام والتصوف: «.. إن ابن عربى وابن الفارض الزعيمان الصوفيان الكبيران عاشا فى عهد الحروب الصليبية، فلم نسمع عن واحد منهما أنه شارك فى قتال، أو دعا إلى قتال، أو سجل فى شِعْره أو نثره آهة حَسْرى على الفواجع التى نزلت بالمسلمين»(٢٤).

وهذا خطأ وقع فيه أستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن الوكيل ومن قبله الدكتور فروخ، فقد كتب محيى الدين بن عربى للملك الكامل، حين تهاون فى قتال الصليبيين وقال له: «إنك دنيء الهمة، والإسلام لن يعترف بأمثالك، فانهض للقتال أو نقاتلك كما نقاتلهم».

ثم يقول فضيلة الشيخ الوكيل: وهو من المعروفين باتجاههم الواضح نحو الهجوم على التصوف والصوفية – يقول عن الإمام الكبير أبى حامد الغزالى: «سقط بيت المقدس فى يد الصليبيين عام ٤٩٣ هـ والغزالى الزعيم الصوفى الكبير على قيد الحياة، فلم يحرك منه هذا الحادث الجلل شعورًا واحدًا، ولم يجر قلمه بشيء ما عنه فى كتبه، لقد عاش الغزالى بعد ذلك ١٣ عامًا إذ مات (سنة ٥٠٥ هـ) فما ذرف دمعة واحدة، ولا استنهض همة مسلم، ليذود عن الكعبة الأولى»(٢٥).

ولكننا نقول للأستاذ الشيخ عبد الرحمن الوكيل: لقد حدث فى هذه الآونة حادث آخر جلل، فالفردوس المفقود الأندلس يكيل لها أعداء الإسلام أقصى ضربات وأشدها سحقًا، فيكتب الغزالى إلى ابن تاشفين ملك المغرب يستنهضه ويقول له فى عنف المؤمن الذى لا يعرف فى الحق لومة لائم: إما أن تحمل سيفك فى سبيل الله، وإما أن تعتزل إمارة المسلمين حتى ينهض بحقهم سواك.

لقد قال الغزالى هذه الكلمات المجلجلة التى وعتها أذن التاريخ وحفظتها الأجيال.

وفى القرن السابع الهجرى قال محيى الدين بن عربى الكلمة الخالدة للملك الكامل التى مرت بنا: إنك دنيء الهمة والإسلام لن يعترف بأمثالك..

أما الشيء الجديد الذى أرغب فى أن نعلمه ونعيه جيدًا، أنه قبل قيام الثورة الفرنسية بثلاث سنوات هنا فى مصر ولأول مرة، أعلنت حقوق الإنسان على يد صوفى كبير هو الإمام الدردير: «فلقد قاد الثورة الوطنية على الأمراء المماليك التى اشتعل لهيبها فى عام ١٢٠٠ هـ – ١٧٨٦ م الإمام الدردير الصوفى، والتى أعلنت فيها لأول مرة حقوق الإنسان قبل الثورة الفرنسية بثلاث سنوات. وكان من نتائج هذه الثورة المباركة، اعتراف المماليك بأن الأمة مصدر السلطات، وبعدم فرض ضرائب جديدة إلا برأى الشعب، واعترافهم الكامل بحرية الأمة وكرامتها»(٢٦).

---

(٢٣) هذه هى الصوفية للأستاذ عبد الرحمن الوكيل ص ١٧٠.

(٢٤) هامش كتاب هذه هى الصوفية للأستاذ عبد الرحمن الوكيل ص ١٧٠.

(٢٥) هامش ص ١٧٠ من نفس الكتاب.

(٢٦) كتاب مكانة التصوف للأستاذ عيد الشافعى ص ١٦٧.

وبينما يهاجم بعض أجلائنا من العلماء التصوف بكل ما عندهم من عنف، نرى صوتًا منصفًا يرتفع ويقول: «يسجل التاريخ لبعض الصوفية المسلمين مواقف لا تنقصها الشجاعة إزاء نصح الحاكم ورده عن ظلمه فى عزة مدهشة، قل أن توجد فى مثل هذا العصر. وقد كان اتصال أغلب المتصوفة بالقاعدة الشعبية أوثق منه بالقمة فكانوا أعرف الناس بآلام الناس، وأدى بعضهم دوره الاشتراكى الإنسانى فى مجال المواساة والإسعاف والإنصاف والإرشاد، ولم يقبل ويحجم إلا المتصوف ذو المزاج المريض»[٢٧].

التصوف.. وعلم النفس:

إن الصوفى الحق إنسان سوى حر، قرر باقتناع وإرادة حرة، أن يسير فى الطريق وله هدف واضح، أن يفر بنفسه ويهاجر إلى ربه، فهو غايته ومنتهاه.

والإنسان الذى يقرر بمحض إرادته أن يسلك طريقًا معينًا، ومسلكًا وعْرًا يحتاج إلى كل البطولة والفداء والإرادة النفسية القوية، ولهذا ينبغى أن يكون إنسانًا سويًّا، وليس من ذوى الأمزجة المتقلبة المريضة على ما يفسر علماء النفس، فمن الملاحظ أن كثيرين من علماء النفس الذين درسوا الظواهر النفسية للتصوف دراسة علمية، لم ينصفوا الصوفية.. ولعل هذا راجع إلى بعض الأخطاء المنهجية فى الدراسة، فهم كانوا يحصرون أنفسهم فى دائرة التجربة الحسية وحدها، ولم يدققوا فى فهم مصطلحات الصوفية التى عبروا بها عن أحوال وجدانية ذاتية خاصة لا تتصف بصفة العمومية[٢٨].

ويقول الدكتور التفتازانى: إن الباحث لكى يحكم على هذا النوع من الصوفية حكمًا علميًّا، فلابد له أن يقوم بتجربته، أو يكون لديه استعداد معين لتذوقه.

أما أن يصطنع علماء النفس فى بعض الأحيان منهج المماثلة فى دراسة حالات الوصف، فهذا هو الخطأ بعينه، لتعذر مماثلتهم للصوفى فى الحالات الوجدانية الخاصة مماثلة حقيقية، وهم ليسوا بصوفية. أضف إلى ذلك أن أولئك العلماء لا يدرسون صوفية موجودين مثلاً، وإنما يكتفون بتحليل ما خلفه الصوفية القدامى من آثار أدبية، وهذا يعنى أن دراساتهم ليست دراسات تجريبية بمعنى الكلمة[٢٩].

ويرى المغفور له الإمام الدكتور عبد الحليم محمود أن علم النفس وعلم الاجتماع، قد أخفقا إخفاقًا كاملاً فى الوصول إلى كنه التصوف وحقيقته، بل إن الدراسات النفسية الحديثة، والدراسات الاجتماعية المعاصرة، أفسدت الفكرة عن التصوف إفسادًا تامًّا، شأنها فى ذلك شأنها فى كل ما اتصلت به من الدراسات التى تتصل بالروح، وبالوحى وبالإلهام السماوى، وبالدين على وجه العموم.. إن الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة، حددت نفسها بالمادة، وتقيدت بالظواهر المادية المحسة الملموسة: المرئية أو المسموعة، أو المذوقة مذاقًا حسيًّا، أو المشمومة. وهى تعترف اعترافًا صريحًا لا لبس فيه أن مجالها إنما هو المجال المادى، وأن كل ما خرج عن المجال المادى فإنه لا يدخل تحت

---

(٢٧) كتاب التصوف طريقًا ومذهبًا للأستاذ الدكتور جعفر ص ٣٣.

(٢٨) المدخل إلى التصوف للأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ص ١٣.

(٢٩) المرجع السابق ص ١٣.

مرصدها ومخبرها ومسبرها، وإذن لا يدخل فى إطار بحثها. والتصوف روح وإلهام وإشراق، فلا يدخل فى مجالها. ومن هُنا كان اكتفاء هذه الدراسات بالمظاهر. والشكل من أجل ذلك كان إخفاقًا كاملاً[٣٠].

الواقع أن العلوم الحديثة واهتمامها بالمادة كأساس لبحوثها ودراساتها، تختلف فى هذا عن التصوف اختلافًا جوهريًا. ومن هنا فشلت هذه الدراسات فى تفسير التصوف، فالمتصوفة أشخاص محدودون، استطاعوا أن يهربوا من سجن النفس[٣١].

وهذا التفسير قد يكون غريبًا، لكن الحقيقة أن معظم الدراسات النفسية قد تردت فى أخطاء واضحة.

ويضرب الأستاذ الدكتور التفتازانى مثلاً لما تردت فيه هذه الدراسات فيقول: «مثلاً للأخطاء الشائعة عند علماء النفس اعتبار بعض حالات التصوف حالات مرضية عقلية، والحقيقة أن ما يشعر به الصوفى فى لحظات معينة يغيب بها عن ذاته مؤقتًا، هو الذى يؤدى به إلى القول بأن عالم الظواهر لا حقيقة له، وهذا لا يبرر الحكم على الصوفى بأنه شخص مريض أو غير سوى، لأن المرض العقلى يصاحبه فقدان مستمر للشعور بالأنا، والصوفى فى كل حالاته لا يفقد استبصاره لذاته مطلقًا، ولو جعلنا منه شخصًا مريضًا لجعلنا كذلك من الشاعر والكاتب والفنان والموسيقى جميعًا مرضى، لا لشىء إلا لأنهم يعانون مشاعر خاصة لا يعانيها غيرهم من أفراد الناس العاديين»[٣٢].

وهناك تفسير نفسى للأستاذ إميل بوتو، يعد من التفسيرات النفسية القليلة التى تعجب الباحث فى التصوف، يقول بوتو فيما نقله عن الأستاذ الدكتور التفتازانى فى كتابه عن ابن عطاء الله السكندرى: «إن نقطة البداية من اللحظة الأولى (بالنسبة لحياة الصوفى النفسية) حالة من حالات النفس من الصعب تحديدها.. إنها حالة من الرغبة المبهمة القلقة، شديدة كعذاب نفس لا يمكن قط تحديدها، أو بالأحرى تفسيرها من حيث موضوعها والدافع لها، هى تطلع نحو المجهول، نحو خير لازم للقلب يقصر العقل عن تمثله.. وعند الصوفى هى حالة عميقة ومستمرة، وتؤرق النفس».

ويقول بوتو أنها تدفع الصوفى بعد ذلك إلى تصور اللامتناهى الخالد الكامل، على أنه الموضوع الأسمى لرغباته، وما ذلك إلا ما يسميه الصوفية المسلمون بالالتجاء إلى الله[٣٣]».

وبرغم إخفاق الدراسات النفسية فى تفسير التصوف، فإنه يمكن إلى حد ما أن نعرف التصوف من الوجهة النفسية تعريفًا عامًا بأنه: «سلسلة متصلة الحلقات من الحالات الوجدانية الخاصة، والمتصوف حين يعبر عن حالاته الوجدانية الخاصة بعد زوالها، يقوم بعملية تذكر للماضى القريب، والقدرة على الوصف والتحليل والتذكر، تختلف قوة وضعفًا باختلاف الأفراد. وقد يعمد بعض المتصوفة إلى التعبير عن حالاتهم الوجدانية الخاصة بطريق الرمز، فتغلب على عباراتهم صفة الإبهام والتعقيد، كما تكون

---

(٣٠) كتاب العارف بالله أبو العباس المرسى للإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٣.

(٣١) Mysticism: By Underhill. London 1949 Page 44.

(٣٢) المدخل إلى التصوف للأستاذ الدكتور التفتازانى ص ١٤.

(٣٣) ذكره الدكتور التفتازانى فى رسالة للماجستير عن ابن عطاء الله السكندرى ص ٤٥.

اللغة أداة عاجزة عن التعبير عن حالة وجدانية معينة اختلافًا لفظيًا... ونلاحظ أن عبارات المتصوفة تحتمل عادة معنيين أحدهما لغوى ظاهر، وهو ما يستفاد من ظاهر الألفاظ، والآخر ذوقى باطنى، وهو ما يستفاد بواسطة التعليق والتعميق. والوصول إلى المعنى الذوقى الباطن أمر شاق»(٣٤).

إن التجربة الصوفية ثرية عريضة لا يستطيع علم النفس أن ينهض بها لاختلاف المنهجين كمًا وكيفًا. ولهذا فإن معظم التفسيرات النفسية للتصوف يعوزها الكثير من الدقة والموضوعية، حتى تتخلص من نظرتها إلى المتصوفة وإلى التصوف على أنه حالة مرضية نفسية.

وإذا كان علم النفس لم ينجح تمامًا فى إلقاء ضوء موضوعى حول التصوف والمتصوفة، فكذا كان من الصعب على عقل الإنسان أن يخترق مساتير الغيب.

إن العقل الذى وصل بالإنسان للقمر، وبه استطاع أن يخر عباب البحار، ويُنشئ الناطحات، ويكشف أعماق البحار والأرض، ويدرس نجوم السماء.. هذا العقل العظيم، لا شأن له بالمساتير: مساتير الملأ الأعلى. لا شأن له بكشف المحجوب: المحجوب الروحى. لا شأن له بمعارج القدس، ولا بمنازل الأرواح(٣٥).

ويقول الإمام الأكبر عبد الحليم محمود: وإخفاق العقل فى عالم التصوف قضية اعترف بها اعترافًا صحيحًا فيثاغورث وأفلاطون وأفلوطين. واعترف بها الكندى والفارابى، وابن سينا، واعترف بها الغزالى، وجميع الصوفية على الإطلاق. وقد اعترفوا بها لما علموا أن العقل لا يتأتى له أن يخرج عن دائرة المادة، واعترفوا بها لما رأوه من خلال التاريخ الفكرى للإنسانية: من أن العقل وقف أمام منازل الروح، ومعارج القدس عاجزًا لا يجد جوابًا؟(٣٦).

وبعد ذلك كله يحق لنا أن نتساءل لماذا نضع الصوفية، ومنهجهم الذوق، تحت مشرط العقل الحاد، وداخل مخبر علم النفس التجريبى، ونتصور أنهم يمثلون عالمًا غريبًا عنا.. أليس من الإنصاف لهؤلاء الصوفية ألا ننسى أنه «مهما بدا الصوفية غرباء بالنسبة لنا، فإنهم ليسوا مقطوعين تمامًا عنا، ولا يفصل بيننا وبينهم ما لا يستطاع عبوره، فهم ينتمون إلينا، هم آباؤنا وإخواننا العمالقة الأبطال لجنسنا البشرى، كما أن ما يناله العبقرى لا ينسب إليه فحسب بل ينسب كذلك إلى أمته، وإلى مجتمعه وبيئته التى أخرجته وأهدت الحياة به»(٣٧).

الحقيقة أن بعض علماء النفس ظلموا الصوفية وأصدروا أحكامًا قاسية على التصوف والصوفية، وذلك راجع إلى نظرتهم إلى التصوف نظرة محدودة، واستخدامهم مناهج تجريبية لا تصلح مع المناهج الذوقية، ومن هنا كان مصدر الخطأ فى أحكامهم البعيدة عن الموضوعية(٣٨).

(٣٤) مجلة علم النفس مقالة بعنوان سيكولوجية علم النفس للدكتور التفتازانى عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ ص ٢٩١، ٢٩٢.

(٣٥) العارف بالله أبو العباس المرسى للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ص ٩.

(٣٦) المرجع السابق ص ١٠.

(٣٧) التصوف طريقًا وتجربة ومذهبًا للأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر ص ٢١.

(٣٨) انظر فى ذلك كتابنا «التصوف النفسى» الذى فَنّدنا من خلاله آراء فرويد وغيره فى التصوف.. وبينا الآراء النفسية الدقيقة للصوفية، وكيف كانوا من أبرز العلماء معرفة بالنفس الإنسانية وأمراضها وكيفية علاجها.